مرجعية أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم عند الشيخ فاضل الصفار

م.م. سرمد فاضل علي

أ.د. هدى عباس محسن

كلية العلوم الاسلامية / جامعة كربلاء

The reference of the Ahlul-Bayt (peace be upon them) in interpreting the Holy Qur'an according to Sheikh Fadhil Al-Saffar

Asst.Lect. Sarmad Fadhil Ali

Prof.Dr. Huda Abbas Mohsen

College of Islamic Sciences / University of Karbala

Email: sarmad.f@s.uokerbala.edu.iq

ملخص البحث

لا يخفى أنّ مرجعية أهل البيت ﷺ من المصادر المهمة في تفسير القرآن؛ إذ تُعدّ المصدر الثاني من مصادر التفسير، ولها مكانة سامية في توضيح مراد الله تعالى في كتابه الكريم، وتمثل الثقل الثاني الوارد في حديث الثقلين الذي أمرنا بالتمسك بالقرآن والعترة معًا.

وهذه المرجعية تعتمد على كم هائل من الروايات التفسيرية التي تفصح عن مفاد الآيات الكريمة في القرآن الكريم.

ويظهر الباحث بوساطة هذا البحث وعطفًا على أبحاث سماحة الشيخ فاضل الصفار، مكانة أهل البيت عليهم السلام العلمية، وأهمية رواياتهم في تفسير القرآن الكريم، ومحاذير الاستغناء عن رواياتهم الشريفة، فضلًا عن آلية تعامل الشيخ الصفار مع تلك الروايات التفسيرية، وكيفية حل المحاذير التي تقف عائقًا أمام تطبيق المنهج الأثري في التفسير.

الكلمات المفتاحية : مرجعية، أهل البيت ﷺ ، الروايات التفسيرية، الشيخ فاضل الصفار.

Abstract

It is no secret that the reference of the Ahl al-Bayt, peace be upon them, is one of the important sources in interpreting the Qur'an; as it is considered the second source of interpretation, and it has a high status in clarifying God Almighty's intent in His Holy Book, and it represents the second weight mentioned in the Hadith of the Two Weights, which commanded us to hold fast to the Qur'an and the family together.

This reference is based on a huge number of interpretive narratives that reveal the meaning of the noble verses in the Holy Qur'an.

Through this research and in conjunction with the research of His Eminence Sheikh Fadel Al-Saffar, the researcher demonstrates the scientific status of the Ahlulbayt (peace be upon them), the importance of their narrations in interpreting the Holy Qur'an, and the dangers of dispensing with their noble narrations, in addition to the mechanism of Sheikh Al-Saffar's dealings with those interpretive narrations, and how to resolve the dangers that stand as an obstacle to applying the traditional approach in interpretation.

Keywords: Reference, Ahlulbayt (peace be upon them), Interpretive Narrations, Sheikh Fadhil Al-Saffar

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين، وبعد:

لا يخفى ما لتفسير القرآن الكريم من أهمية بالغة في الكشف عن مراد الله تعالى وتقديمه الى الناس بصورة مناسبة يفهمونها ويألفونها ؛ وذلك لمكانة القرآن الكريم السامية، إذ يمكن عدّه الدستور الإلهي الخالد في أرضه.

فراح المفسرون من كل حدب وصوب ليبذلوا جلّ جهدهم، متدبرين في آياته، ومستلهمين من تعاليمه الراقية القيم والهمم، مشمرين عن سواعدهم ليخطوا بأناملهم ما توصلوا اليه من معانٍ مستفادة من هذا الكتاب العظيم، فقدموا نماذج رائعة في الكشف والايضاح، كلٌ قد أدلى بدلوه وجمع من مصادر تفسيره ما يروي به عطش الظمآن، وهداية الانسان.

ومن بين هؤلاء المفسرين ظهر دور الشيخ فاضل الصفار بارزًا في هذا المجال، فقدم تفسيرًا انماز بالسعة والشمول من جانب، وعمقه العلمي من جانب آخر.

إذ اعتمد على أسس معرفية تجمع بين التمسك بالقرآن والعترة معًا ؛ وذلك طبقًا لما تواتر في حديث الثقلين الشريف الذي حث الرسول صلى الله عليه وآله عليه في مواطن عدة، ودلّ على ضرورة التمسك بهما، لإحراز عدم الظلالة.

وقد اختار الباحث الكلام في جانب منهما وهو الرجوع الى العترة، ونريد بالعترة هنا المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام ؛ لذلك نحاول هنا تسليط الضوء على مرجعية أهل البيت عليهم السلام في التفسير على نحو الايجاز، بحسب ما ذكره ، أو الفت اليه الشيخ فاضل الصفار في أثناء بحوثه التفسيرية، والتي عالج فيها جملة من المشاكل التي تواجه المفسر في تعامله مع تلك الروايات التفسيرية، لاسيما في كتابه المنهجي (قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله).

أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث من موضوعه، إذ أنّ مرجعية أهل البيت عليهم السلام تمثل عنصرًا أساسيًا في استكشاف مفاد الآيات القرآنية، فهو المصدر الثاني للتفسير بعد القرآن الكريم، فضلًا عن كونها حلقة وصل مهمة بين الخالق والمخلوق.

مشكلة البحث

إنّ العزوف عن هذا الركن المهم في التفسير (أهل البيت عليهم السلام) يؤدي الى نتائج ناقصة ، أو خاطئة في بيان مراد الله تعالى، وعليه لابد من تسليط الضوء على هذه المرجعية لتأخذ مكانتها العلمية السامية، ويمكن أن نعبر عنها بتساؤل يجيب عنه البحث، وهو هل تشكل مرجعية أهل البيت عليهم السلام عنصرًا مهمة في تفسير القرآن الكريم؟

منهج البحث:

اختار الباحث المنهج التحليلي في عرض مطالب هذا البحث.

خطة البحث:

سينتظم البحث على محورين :

الأول : حول أهل البيت عليهم السلام ورواياتهم التفسيرية، ويتضمن مكانة أهل البيت عليهم السلام في التفسير، وأهمية الاستناد إلى رواياتهم التفسيرية، ومحاذير الاستغناء عن رواياتهم الشريفة.

الثاني : سيتناول منهج الشيخ الصفار في التعامل مع الروايات، وسيتضمن معالجة محاذير التعامل مع الروايات التفسيرية وهي ثلاثة اصناف: الأولى محذور الإشكال السندي، والثانية النقص في الأحاديث المعتبرة، والثالثة التعارض الدلالي.

نسأل الله تعالى أن يجعل فيه نفعًا للمؤمنين إنه سميع الدعاء، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

لما كان البحث يدور حول جهد الشيخ فاضل الصفار يحتم ذلك علينا بيان تعريف مقتضب بسيرته الذاتية، وسنكتفي فيها بنقطتين:

١- سيرته الذاتية:

هو فاضل بن الحاج محمد بن الحاج صالح الصفَّار.

ولد في مدينة كربلاء المقدسة سنة ١٣٨١هجري، الموافق ١٩٦٢ ميلادي.

نشأ في كربلاء ودرس الابتدائية الى نهاية المرحلة الإعدادية [١].

اضطر سماحته للهجرة من بلده الأصل العراق في عام ١٩٧٩م إلى سوريا، ومكث فيها ستة أشهر، انتقل بعدها الى ايران، كان ذلك نتيجة التضييق الذي مارسه نظام البعث الظالم[٢]، وعاد الى بلده ووطنه مباشرةً بعد سقوط الطاغية سنة ٢٠٠٣م.

٢- مؤلفاته في التفسير:

امتاز الشيخ الصفار بالموسوعية، إذ كتب في كثير من التخصصات الدينية، كالأصول، والعقائد، والفقه، والأخلاق، والسياسة، والإدارة، والتاريخ، والحديث، وغيرها [٣].

وكان مما كتب به علم التفسير، إذ يصدر له تباعًا كتاب (ما يقوله القرآن) صدر له فيه الى الآن ثلاثة سور قرآنية هي: (ما يقوله القرآن في سورة يس)، و (سورة القدر مجلد واحد)، و(سورة الفاتحة ثلاثة مجلدات)، فضلًا عن كتاب قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله.

وللكلام في ذلك تفصيل لا يسع المقام ذكره، بيد أنّ ما ذكر يمكن أن يفي بمدخل هذا البحث المتواضع، والذي تضمن أربعة محاور سبق الإشارة اليها في المقدمة وتفصيلها

(١) ينظر: الفاطميات، علي حيدر المؤيد: ٣٧٨ .
(٢) ينظر: ادباء كربلاء في خارج الوطن، سعيد زميزم: ١/ ٢١ .
(٣) ينظر: الترتب عند الأصوليين، ظافر الفياض: ٢٨-٢٩، ادباء كربلاء في خارج الوطن، سعيد زميزم: ١/ ٢٢.

كالآتي.

أولًا: أهل البيت عليهم السلام ورواياتهم التفسيرية

إنّ لأهل البيت عليهم السلام ريادة علم التفسير -كما لا يخفى- فإنّهم المصدر الثاني بعد كتاب الله تعالى، وهم الذين أمرنا الله تعالى بطاعتهم، وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة الرسول صلى الله عليه وآله قال تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [1]، ونظرًا لأهمية هذا الجانب سيذكر الباحث ريادتهم ومكانة رواياتهم في تفسير القرآن عبر ثلاث نقاط وهي:

١- مكانة أهل البيت عليهم السلام في التفسير

٢- أهمية الاستناد الى الروايات في التفسير

٣- محاذير الاستغناء عن الروايات

١- مكانة أهل البيت عليهم السلام في التفسير

لا شك أنّ منزلة أهل البيت عليهم السلام في مناحي الحياة جميعها تقع على قمة القمم، بل تعلو مكانتهم على مكانة سائر المجتمع فهم حجج الله تعالى على الخلق أجمع، وليسوا كباقي البشر، يعرف بها القاصي والداني، بل ورد عن طريق العامة أنّ عبد الله بن أحمد بن حنبل سأل أباه في التفضيل والخلافة، ففضّل بعضهم على بعض ولم يذكر عليًا، فقال له (فعلي؟) فأجابه ((يا بنيّ علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد)) [2].

ومما ظهر جليًا علو مقامهم في بيان معاني القرآن، بما لا يدع للشك مجالًا في أنّهم أفضل وأرقى مَن بيّن معاني القرآن من بين الناس، كما أنّهم الأسبق زمانًا في ذلك.

وفي سيرتهم شواهد عديدة ومتضافرة حول ذلك، وقد ذكر الشيخ الصفار جملة من تلك الشواهد وبوّبها على ثلاثة أقسام هي:

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) مناقب الإمام أحمد:٢١٩، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، اسد حيدر: ١/ ٦٠٠.

١) إنّ جميع علماء الأمة من مختلف مدارسهم ومشاربهم كانوا يرجعون إليهم عليهم السلام في فهم معاني القرآن وبيان حدوده وأحكامه، ومما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: ((لَوْ شِئْتُ لَأَوْقَرْتُ سَبْعِينَ بَعِيراً فِي تَفْسِيرِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ))[١]، وهذا من منفرداته التي لا يضاهيه فيها أحد من الناس كانفراده بعلم طرق السماوات والأرض[٢].

٢) في مواطن الاحتجاج ومحاورة الخصوم الذين يسعون لافحامهم بين حين وآخر، إذ كانوا يستدلون بدلائل القرآن والسنة والعقل، لا بالآراء والظنون التي تعمل بها المدارس الأخرى، ولهذا كانوا يبهرون خصومهم ويفحمونهم فلا يملكون إلّا الإقرار بقصورهم وتصاغرهم دون علومهم ومعارفهم.[٣]

٣) تفردهم بآراء تطابق القرآن والعقل بما يقنع الأطراف المقابلة مهما بلغوا من الخصومة والندية في الجدل، بل كانوا يأخذون الإقرار من خصومهم بصواب ما سمعوه، وأنه بالنسبة لهم جديد كأنهم لم يسمعوه أو يقرأوه من قبل، وكثيرًا ما كان يحصل ذلك مع الملوك والسلاطين الذين يجهدون أنفسهم في محاولة افحامهم، والانتقاص من مكانتهم العلمية والروحية[٤].

والشواهد على ذلك كثيرة بيد أن المقام لا يسع ذكرها ولمن طلبها فليراجع كتب التأريخ والسير، وغيرها من الكتب الروائية.[٥]

والحاصل ممّا تقدم أنّ مقام أهل البيت ومكانتهم لاسيما في التفسير تُعدّ أسمى، وأعلى شأنًا من سائر البشر؛ إذ إنَّهم حجج الله تعالى، ويمثِّلون حلقة الوصل بين المخلوق والخالق،

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبي طالب المكي (ت٣٨٦هـ): ١/ ٩٣، المناقب، ابن شهر آشوب: ٢/ ٤٣، نهج الإيمان، ابن جبر: ٢٧٥

(٢) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ١٧٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٤-١٧٥.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٥.

(٥) راجع مثلًا: الكافي، الكليني: ٨/ ١٢٠، الاحتجاج، الطبرسي: ٢/ ١٧٧و ٢/ ٣٠٦و ٢/ ٤٥٥، الخرائج: ٢/ ٧١٠، البحار، المجلسي: ١٧/ ٢١٣، عيون أخبار الرضا، الصدوق: ٢/ ٢٣١، وغيرها.

فلا ريب أنّهم الأعلم والأفضل والأسمى في بيانهم لمعاني القرآن.

٢- أهمية الاستناد الى الروايات في التفسير

بعد الإشارة إلى مكانة أهل البيت ﷺ في بيانهم لمعاني القرآن، وأنّهم حجج الله في الأرض، وأنّهم أعلى من سائر الخلق منزلة، وصلنا إلى بيان مكانة الرواية في التفسير، وقبل أن نبين مكانتها وأهميتها في التفسير، يحق لنا التساؤل من الشيخ الصفار في إمكان وصف أهل البيت ﷺ بالمفسرين طالما هم يبينوا معاني القرآن؟

وقد كان جوابه بأن ((وصف النبي والعترة ﷺ بالمفسرين للقرآن لا يخلو من تسامح بين؛ لأنّهم فوق التفسير وأقوال المفسرين، فهم مظاهر علم الله ، ووعاء مشيئته ، وموضع سره ومحل أمره ونهيه، وقد أدبهم الله تعالى بآدابه، وفوض إليهم دينه، فهم يمثلون إرادة الله سبحانه وحكمته، ويكشفون عنها بواسطة الألفاظ، وأنّهم لا يكتشفونها من الألفاظ، وهم خلفاء الله وحججه لا علماء ومفسرون بالمعنى الاصطلاحي للتفسير، ولذا لا غنى عن الرواية الواردة عنهم في فهم القرآن ومعرفة مقاصده))[1]

وهنا تكمن أهمية الاستناد الى الروايات الشريفة عنهم في مناحي الحياة جميعها، لاسيما في التفسير، بل لعل الاستناد إليها في التفسير ألزم وأهمّ ممّا سواه؛ لمكانة القرآن الكريم، فهو كتاب الله ودستوره في الأمة، وأهميته بالغة في هداية الناس إلى الحق، وأنّ دور الروايات يكمن في الكشف عن مراد الله تعالى وايضاح كتابه العزيز.

ومن هنا أطلق الشيخ الصفار كلمته بعنوان لا غنى عن الروايات، إذ أوجب فيها ارتكاز البحث القرآني في جانب كبير منه على الروايات، والوقوف عند دلالاتها، وبيان وجه تطابقها وتكميلها للدلالات القرآنية من جهة تفصيل مجملاته ، وبيان تأويلاته، وتخصيص عمومه، وتقييد اطلاقاته، أو تكميل المعاني باللطائف والاشارات؛ فإنّ السنة تكمل الدلالات القرآنية، وتكشف عن أسرار القرآن، وعلومه، ولا يمكن فهم القرآن فهمًا

(١) مايقوله القرآن في سورة يس: ١/ ١٤٧.

واعيًا أو كافيًا دون الرجوع إلى الروايات [١] .

ونلاحظ التأكيد العميق على الاستناد إلى الروايات في التفسير، وأن عدمها لا يبلغ بالتفسير حد الكفاية والوعي التام.

لا سيما وأنّ في القرآن أربع دلالات[٢] يمكن استخلاصها من الآيات الشريفة، وهي: العبارات، والاشارات، واللطائف، والحقائق .

وعلى أساس ذلك فقد ذكر الشيخ الصفار أنّ البحث في معارف القرآن لا يستغني عن مرجعية المعصوم عليه السلام في جميع الدلالات الأربع، أمّا على مستوى العبارة فلأن كلام المعصوم وحي الهي، كما أنّ القرآن وحي؛ فإنّ كلام المعصوم يخصص ، أو يقيد ، أو يكشف عن القرائن الخفية، أو يكشف عن المعنى المراد في الآية، وكذا على مستوى الإشارة، وأمّا على مستوى اللطائف والحقائق فلتعذر فهمها إلاّ بواسطته، وعليه فلا يستغني الباحث في معارف القرآن ومضامينه عن الرواية.[٣]

ثم أضاف مناقشة وتوجيه لقول بعض المفسرين الذاهبين نحو تفسير القرآن بالقرآن بأنّ ((دعوى فهم القرآن بوساطة القرآن نفسه، إذا أريد بها أنّ بعض الآيات تكون قرينة على فهم الآيات الأخرى كما أنّ الروايات تكون مفسرة ومبينة للمعاني فهو وجيه، وعليه مضت طريقة علماء الشيعة في التفسير، وإذا أريد به الاستغناء عن الروايات والاكتفاء بالآيات في ذلك فهي دعوى باطلة))[٤]، وبين أنّ ما يبطلها ثلاثة أمور.

الأول: لما فيها من شبهة الدور؛ لأنّ ما يراد فهمه من القرآن لإبهامه، كيف يفهم من القرآن نفسه.

(١) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ٢٧٧-٢٧٨.

(٢) مستخلصة من الرواية الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: ((كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: عَلَى الْعِبَارَةِ، وَ الْإِشَارَةِ وَ اللَّطَائِفِ وَ الْحَقَائِقِ فَالْعِبَارَةُ لِلْعَوَامِّ، وَ الْإِشَارَةُ لِلْخَوَاصِّ، وَ اللَّطَائِفُ لِلْأَوْلِيَاءِ، وَ الْحَقَائِقُ لِلْأَنْبِيَاءِ)). نزهة الناظر و تنبيه الخاطر: ١١٠، الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة:٣٠، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٣٠٣.]

(٣) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ٦٧.

(٤) المصدر نفسه: ٦٨.

و الثاني: أنّ القرآن يبطل هذه الدعوى؛ إذ نص على قوله تعالى ﴿ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾[1]، إذ أنّ كلام المعصوم وحي، ومن حيث الجوهر والحقيقة فكلام المعصوم وكلام الله واحد، إلّا أنّ كلام الله نزل بداعي الإعجاز، وكلام المعصوم ورد بداعي البيان والتعليم[2]

و الثالث: الأحاديث المتواترة في السنة الشريفة -تبطلها - مثل حديث الثقلين[3] الذي نصّ على وجوب الالتجاء والتمسك بالقرآن والعترة معًا، وأنّ التمسك بأحدهما يعد ضلالة [4] .

ويبدو للباحث أنّ دلالة حديث الثقلين صريحة في عدم صحة الاستغناء عن السنة، كما لا يُستغنى عن القرآن، ومن ثمَّ فالاستدلال به هو العمدة وغيره مؤيد له ؛ لأنّ شبهة الدور غير مستقرة، إذ أنّ ما يراد بيانه من العبارات أو الآيات لإبهامها، غير ما يراد الكشف به من الآيات لوضوحها .

كما أنّ النص القرآني الذي ينص على ضرورة الأخذ بما يأتي عن الرسولﷺ لا ينفي الأخذ من القرآن وحده مستقلًا في بعض الموارد، نعم إلّا إذا ورد عن طريق السنة المعتبرة ما ينفيه ، ففيها تكون السنة حاكمة، وعليه يمكن الاستناد الى القرآن مستقلًا، ولكن بقيد.

نعم لا يمكن الاستقلال بالقرآن وحده إن أُريد به كل القرآن، فلابد من الرجوع إلى السنة في بعض الموارد.

وعلى أساس ما تقدم لا يصح التفسير من دون الرجوع إلى الروايات الشريفة للمعصومينعليهم السلام، فهم ترجمان القرآن، ولا يمكن فهم القرآن فهمًا تامًا من دون مراجعة

(١) سورة الحشر: الاية ٧ .

(٢) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ٦٨ .

(٣) في البصائر، وقريب منه في الكافي، عن جابر قال قال: أبو جعفرعليه السلام دعا رسول اللهﷺ أصحابه بمنى قال (يا أيها الناس اني تارك فيكم الثقلين اما ان تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار: ٤٣٣، الكافي، الكليني: ٢/ ٤١٥].

(٤) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ٦٨ .

ترجمانه، بل يمكن القول إنَّ البحث التفسيري، إن افتقر من الروايات أصبح بحثًا ناقصًا؛ لأنّ السنة موضحة ومكملة لبيان القرآن كما تقدم.

٣- محاذير الاستغناء عن الروايات

تقدّم في النقطة السابقة أهمية الروايات في بيان معاني القرآن، وضرورة التمسك بها وعدم الاستغناء عنها في التفسير.

وأنّ الاستغناء عن الروايات الصحيحة سيؤدي إلى محاذير عدة قد ذكر الشيخ الصفار ثلاثة نقاط[١] هي محاذير لا يمكن التهاون فيها إزاء ترك الرجوع الى المعصومين عليهم السلام:

١- مخالفة القرآن؛ لأنّه تعالى أمر بالأخذ بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله، والسؤال عن أهل الذكر[٢] في كل ما يُراد معرفته.

٢- مخالفة السنة القطعية التي نصّت على أنّ القرآن لا يمكن فهمه ومعرفة تفصيله وتخصيصه، وناسخه ومنسوخه، وتفسيره وتأويله إلَّا بالرجوع إلى المعصوم عليه السلام.

٣- مخالفة العقل وطريقة العقلاء؛ لأنّهما قاضيان بلزوم الرجوع إلى العالم وذي الاختصاص في كل علم وفن، وقد اتفقت كلمة المسلمين على أنهم عليهم السلام أعلم الناس بالله وبكتابه ودينه، فلا يعقل أن يفهم كلام الله وبلوغ مقاصده ومراميه دون اللجوء إليهم، فإنّ العلوم الطبية -مثلًا- لا يفهمها إلّا الطبيب، والعلوم الفلكية لا يدرك حقائقها وآثارها إلّا الفلكي، وهكذا سائر العلوم التي تتعلق بالأعيان المادية، فكيف للإنسان العادي أن يدرك العلوم الغيبية بالاعتماد على اللغة فقط، أو الأفهام القاصرة للبشر دون الرجوع إلى العلماء المتصلين بالغيب المطلعين على أحواله وأسراره؟!

وأنّ المفسرين الرامين إلى بيان معاني القرآن وحقائقه، لا يمكن والحال هذه أن يصلوا إلى مرادهم دون الالتجاء إلى السبيل المؤدي إلى الله تعالى في الأرض، وهم المعصومون عليهم السلام ومن خالف وقع في مغبة التفسير الخاطئ.

(١) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ١٨٣.

(٢) قوله تعالى: ﴿ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة النحل: ٤٣، سورة الأنبياء: ٧]

وعلى أساس ذلك فقد بيَّن الشيخ الصفار نتيجة تخلي بعض المفسرين عن السنة الشريفة في أثناء تفاسيرهم، إذ كان مؤدى عملهم شدة الاضطراب والاختلاف على مستوى التناقض أحيانًا بين أقوالهم ؛ لأنّهم استغنوا عن مرجعية أهل البيت ﷺ في التفسير، وأنّ تفاسير العامة شاهدة على هذه الحقيقة، فما أكثر الخلل الواقع في بيان معاني المفردات والمقاصد القرآنية، وكثير منها لا دليل عليها سوى الظنون والآراء والاستحسان، ولا أظن أنّ الباحث والطالب يخفى عليه ذلك بأدنى مراجعة الى تفَاسيرهم [١] .

فهذه نتيجة التخلي عن السنّة الصحيحة التي هي عِدل القرآن الكريم بصريح حديث الثقلين.

ومما تقدم يظهر أهمية التمسك بالسنة الصحيحة عند التفسير، ومدى خطورة الابتعاد عنها؛ لأنّ ذلك يؤدي الى محاذير لا ينبغي التهاون فيها.

ثانيًا: منهج الشيخ الصفار في التعامل مع الروايات

بعد بيان ريادة أهل البيت ﷺ ومكانتهم وأهمية الروايات الواردة عنهم في التفسير، ومحاذير التخلِّي عنها، وصل البحث الى بيان آلية التعامل مع الروايات الشريفة في التفسير من قبل الشيخ فاضل الصفار.

إذ إنّ الطريق غير سالك في التعامل مع رواياتهم، ولا ينبغي الأخذ بكل ما يُروى، وإغماض الطرف عن الضوابط التي ينبغي مراعاتها إزاء الروايات ؛ لأنّ الضوابط تحدّد لنا المسار الذي ينبغي أن يسير به المفسر في الاستفادة من السنة الشريفة .

وقد بيّن الشيخ الصفار أنّ الروايات الواردة عنهم ﷺ في بيان معاني القرآن فيها بثلاثة محاذير[٢]:

المحذور الأول: الإشكال السندي في طائفة ليست قليلة منها.

المحذور الثاني: النقص في الأحاديث المعتبرة.

(١) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ١٨٤ .
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٩ .

المحذور الثالث: التعارض الدلالي

بيد أنَّ هذه المحاذير ينبغي إعمال النظر فيها والبحث في إمكان التخفيف من حدّتها؛ لأنّ لا يبقى فراغًا في التفسير.

ونلاحظ أنّ كل مفسر كانت له آلية يتعامل بها مع الروايات الشريفة، وكان للشيخ الصفار وجهة نظر علمية في تعامله مع روايات أهل البيت عليهم السلام.

وسيأتي كيفية التعامل مع تلك المحاذير الثلاثة:

المحذور الأول (الاشكال السندي)

ذكر الشيخ فاضل الصفار أنّ هذا الإشكال محلول عندنا – أي الامامية –؛ لأن كتبنا الروائية جمعت ونقحت الروايات المعتبرة في الغالب، ولا يوجد فيها ما لا يمكن اعتماده إلّا النادر جدًا، لاسيما على مسلكنا العام في اعتماد الروايات [1].

ومن الواضح سعة التعامل مع الروايات على ضوء هذا المسلك، إذ نادرًا ما تخرج منه رواية عن حد الاعتبار.

وقد بيَّن الشيخ أنّ هذا المسلك يقوم على مراعاة ثلاثة أمور في العمل بالرواية:

١- قوة المتن.

٢- صحة المضمون.

٣- وثاقة السند.

والأول منها (أي قوة المتن) يمكن للعارف باللغة، وأساليب الكلام، والخبير بنورانية كلامهم عليهم السلام معرفته [2].

ويبدو أنّ هذا يحتاج إلى خبرة عملية ومعايشة مع أحاديث المعصومين عليهم السلام فتتشكل لدى المفسر ملكة حسية بما يألف، أو لا يألف من كلامهم.

(١) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ١٨٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٠.

والثاني (أي صحة المضمون) يعرف من تطبيق المضمون على المضامين الصحيحة الواردة في الكتاب والسنة القطعية [١] .

ويبدو أنّ ذلك يتوقف على قراءة نوعية لأحاديثهم القطعية، فضلًا عن مضامين الكتاب العزيز؛ لينتقل ذهن المفسر من الرواية الحاضرة إلى مضامين الكتاب والسنة القطعية.

والثالث (أي وثاقة السند) يعرف من القرائن المحتفة كوثاقة الكتاب ، ووثاقة الكاتب وتبنيه القولي أو العمل لما ينقله ويرويه، إلى غير ذلك مما نقحناه وحققناه في كتابنا (فقه الحديث)[٢]، وعليه فالأصل هو اعتبار الروايات الواردة في كتبنا المعروفة المعتمدة [٣] .

وعلى اساس ذلك فإنّ أغلب الاشكالات السندية قد حلّت عند الشيخ الصفار، على ضوء المسلك العام الذي سار عليه.

المحذور الثاني وهو (النقص في الأحاديث المعتبرة)

إذ إنّ الروايات المعتبرة قليلة قياسًا بالقرآن الكريم، فلا تستوعب تفسير القرآن الكريم كاملة، فإنَّ ما وصل إلينا من مصادر لا تفي بجميع الآيات.

ومشكلة النقص في الروايات تبقى قائمة لا يوجد علاج لها؛ لمحدودية المصادر الروائية الواصلة الينا، وعليه ينبغي النظر في الآية نفسها على ما سيجيئ في الحالة الأولى من المحذور الثالث آنفًا.

المحذور الثالث وهو (التعارض الدلالي)

فإنّ بعض الروايات تبين المعنى على خلاف المعنى الظاهر من القرآن، والقاعدة تقتضي الإعراض عن الرواية لما تواتر عنهم ﷺ بأنّ ما خالف كتاب الله لم يقولوه[٤]، ويجب الإعراض عنه [٥] .

(١) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ١٩٠.
(٢) ينظر: فقه الحديث، الصفار: ٢/ ٢٤١ و ٣٧٧.
(٣) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ١٩٠.
(٤) ينظر: الكافي، الكليني: ١/ ١١٧، بحار الأنوار، المجلسي: ٢/ ٢٢٩.
(٥) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ١٨٩.

ويمكن حل هذا المحذور بملاحظة الرواية - إن وُجِدت - في كلّ آية يراد فهم معناها، وهي لا تخلو من حالتين:

الحالة الأولى: عند عدم وجود رواية واصلة إلينا تبيّن معنى الآية، فينظر إلى الآية نفسها فإن كانت ظاهرة في معنى أخذ به؛ وذلك لحجية الظهور كما في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ﴾[1]، وإن كانت مجملة أو متشابهة أرجعت إلى الآيات المحكمة؛ لرفع إجمالها وتشابهها على ما تقتضيه القاعدة كما في قوله تعالى: ﴿ وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[2]، التي يظهر منها المجيء الحسي والمنظور بالأبصار، وفي قبالها نجد قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ﴾[3] فإن الآية الثانية تفسرِّ الأولى وترفع تشابهها[4].

وبالطريقة نفسها تحل إشكالية نقص الروايات المعتبرة المتقدمة في المحذور الثاني.

الحالة الثانية: عند وجود رواية واصلة إلينا، وحينئذ ينظر في دلالتها ولها حالتان[5]:

١- أن تكون مجملة الدلالة: فإن كانت الرواية مجملة الدلالة وهي نادرة الوقوع فلا يؤخذ بها إلا بعد رفع الإجمال عنها.

٢- أن تكون ظاهرة في المعنى وهو الغالب فتكون على أنحاء أربعة سنشير إليهم باختصار:

أ- أن تكون واردة لبيان المعنى الخاص الحصري فهي تنفي ما عداه، ويؤخذ بها، وتحمل دلالة الآية عليها وإن كانت في ظاهرها عامة؛ لضرورة حمل العام على الخاص، وكون الخاص قرينة على عدم إرادة العموم من العام، ومن أمثله ذلك آية التصدق بالخاتم، وآية التطهير، وآية إكمال الدين ونحوها، فإنّها واردة لبيان المعنى الحصري المقصود فلا

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٣.
(٢) سورة الفجر: الآية ٢٢.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٤) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله: ١٩٠.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٩١.

تشمل غيره [١] .

ب- أن تكون واردة لبيان المصداق الظاهر أو الأظهر، وعندها لا تنفي ما عداه، فيؤخذ بها كما يؤخذ بظهور الآية ومن الامثلة عليه قوله تعالى: ﴿ وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ ﴾[٢] فإن سياقها ومنطوقها يفيدان العموم، وإنّ المقصود بالأذن الواعية هي كل أذن تسمع بالأحداث التي فيها عظة وعبرة كغرق الأرض ، ونجاة أهل الإيمان بسفينة نوح فتتعظ منها وتتعلم، وتتيقن بأن قدرة الله وحكمته حاكمتان في الوجود.[٣]

ج- أن تكون الرواية واردة ولا يعلم بأنّها في مقام بيان المعنى المراد أم الاشارة إلى المصداق، فيدور الأمر حينئذ بين الأخذ بالرواية أم بالآية كما يشتبه في المراد من الشجرة الملعونة في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾[٤] ، وقد تضافرت الأخبار بأنّ المراد بها بني أمية، فإذا شك في أنّ هذا هو المعنى الحصري لها أم يراد به المصداق؟ فتشمل كل شجرة خبيثة حينئذ، فالحق هو الأول لسببين:

السبب الاول: أنّ الأصل في الروايات الواردة أنّها لبيان معاني القرآن لا بيان مصاديقه، فحمل الآية على المصداق يفتقر إلى دليل ، فإذا لم يكن هنالك دليل حُمل على الأصل.

السبب الثاني: أنّ الأخذ بمدلول الرواية هو القدر المتيقن الذي يطمأن بصحته، أمّا غيره فمشكوك ، وإذا دار أمر المفسِّر بين الأخذ بالموثوق والمشكوك، فإنّ الموثوق هو الراجح [٥] .

وعلى أساس ذلك فإنّ الأخذ يكون بالمعنى المتعارف وهو الأصل والموثوق، دون غيره من المعاني طالما لا يوجد ما يدل على خلافه.

ت- أن تكون واردة لبيان معنى مخالف للقرآن بنحو الضد والنقيض لا التخصيص والتقييد، أو بيان المجمل ورفع التشابه، فيعرض عن الرواية ويعلم بعدم صدورها

(١) ينظر: المصدر نفسه.
(٢) سورة الحاقة: الاية ١٢.
(٣) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله، الصفار: ١٩٢.
(٤) سورة الاسراء ، الآية : ٦٠.
(٥) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله، الصفار: ١٩٤.

عنهعليه السلام، أو أن صدورها كان على نحو التقية، وقد ذكروا عليهم السلام أنّ كل حديث يخالف كتاب الله لم يقولوه، وأمروا بالإعراض عنه[١] وتركه[٢].

فمن بين هذه الطوائف الأربعة من الروايات لا يعرض إلّا عن الطائفة الرابعة لمعارضتها للقرآن الكريم ؛ لأنّ معارضتها للقرآن يكشف عن عدم صدورها عن المعصومعليه السلام.

وفي المقام شواهد عدّة تبين ذلك تركها الباحث رعاية للاختصار.

ومما تقدم يعلم أنّ الرواية الشريفة تحمل على الجمع الدلالي، ومع عدم امكان حملها عليه ينبغي الإعراض عنها؛ لمخالفتها للقرآن.

بيد أنّ الشيخ الصفار استدرك قائلًا ((ولكن من محاسن الأمور هو قلة وقوع التعارض الذي لا يمكن حله بالجمع الدلالي، فالحاجة إلى الإعراض عن الرواية المخالفة للقرآن قليلة قد لا تعد بالحسبان. هذا كله في الروايات الواردة بطرقنا))[٣].

وعلى أساس ذلك فإنّ النتيجة المستخلصة من تعامل الشيخ الصفار مع الروايات في التفسير، تبين عدم وجود إشكالية في السند؛ لأنّ اشكاليته مدفوع بثلاث قرائن، وأنّ الاشكال الدلالي يمكن حله بالجمع الدلالي، ومنه ثبت لدى الشيخ الصفار بالتحري والتحقيق وجود تطابق دلالي بين القرآن والسنة الواردة في كتبنا المعتمدة، ولم يجد إلّا روايات قليلة مخالفة تستدعي الجمع[٤]، وهذه النتيجة تعطي سعة في التعامل مع الروايات وفي الاداء التفسيري.

فالحاصل مما تقدم أنّ منهج الشيخ الصفار في التعامل مع الروايات الشريفة، يحمل سعة في الأداء، مما يصحح أغلب الروايات الواردة في كتبنا المعتمدة، وأمّا ما يَعرِض عنها من الروايات فهي لا تمثل إلّا نزرًا يسيرًا من المنظومة الروائية.

(١) ينظر: الكافي، الكليني: ١/ ١١٧، بحار الأنوار، المجلسي: ٢/ ٢٢٩.
(٢) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله، الصفار: ١٩٤.
(٣) ينظر: قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله، الصفار: ٢٠١.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠١.

ومما تقدم فإنّ التمسك بالقرآن والعترة معًا هو الطريق الأسلم في التفسير، وأنّ التمسك بالعترة يكون عن طريق مراعاة مرجعية أهل البيت عليهم السلام، وذلك عن طريق الاستناد الى رواياتهم الشريفة الواردة عنهم في تفسير كتاب الله تعالى، مع مراعات ضوابط التعامل مع تلك الروايات الشريفة.

الخاتمة وأهم النتائج

وفي خاتمة المطاف نسأل الله تعالى التوفيق في عرض هذا البحث بصيغة مناسبة تنفع الباحثين، ويمكن أن نستخلص منها بعض النتائج بما سيأتي:

١- أنّ الطريق الأسلم في التفسير لابدّ من أن يجمع بين القرآن والعترة معًا ، ولا ينبغي الاكتفاء بواحد منهما فقط.

٢- لأهل البيت عليهم السلام مكانة علمية سامية، وهم أرقى من كشف عن مراد الله تعالى في القرآن الكريم، إذ هم حجج الله تعالى في أرضه ، وسبل هدايته.

٣- تشكل الروايات التفسيرية عنصرًا أساسيًا في التفسير، فلا بد من الاستناد إليها إن اريد بالتفسير أن يبلغ حد الكفاية والوعي التام، فالبحث التفسيري إن افتقر من الروايات أصبح ناقصًا دون شك .

٤- أنّ الاستغناء عن الروايات التفسيرية تؤدي الى محاذير عدة لا ينبغي التهاون فيها؛ إذ تؤدي الى مخالفات منها: مخالفة القرآن نفسه، ومخالفة السنة القطعية، ومخالفة العقل وطريقة العقلاء.

٥- أنّ الاشكال السندي في الروايات التفسيرية الواردة في كتبنا المعروفة والمعتمدة، قد حُلَّ عند الشيخ الصفار؛ وذلك بالاعتماد على ثلاث قرائن.

٦- أنّ الروايات المعتبرة قليلة قياسًا على القرآن الكريم، فلا تستوعب جميع القرآن الكريم؛ لأنّ المصادر الواصلة الينا لا تفي بجميع الآيات، وهذا أحد الأسباب التي تجعل جميع المناهج الأثرية في التفسير غير تامة.

٧- عند التعارض الدلالي بين الآيات والروايات لابدّ من العمل على الجمع الدلالي إن أمكن ذلك، وإلّا فيعرض عن الرواية لمخالفتها للقرآن الكريم.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. الاحتجاج على أهل اللجاج، احمد بن علي الطبرسي (ت ٥٨٨ هـ) ، نشر المرتضى، مشهد، ط١ ، ١٤٠٣ هـ .

٣. ادباء كربلاء في خارج الوطن، سعيد رشيد زميزم، مكتبة العلامة ابن فهد الحلي، ط١، كربلاء، ١٤٣٩هـ.

٤. أعلام الدين في صفات المؤمنين، الحسن بن محمد الديلمي (ق٨)، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، د.ط . ايران- قم، د.ت .

٥. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، اسد حيدر، دار التعارف، ط٥، لبنان – بيروت، ١٤٢٢هـ.

٦. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام ، الشيخ محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت١١١٠ هـ) ، ط٢، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣ هـ .

٧. بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد صلّى الله عليهم، محمد بن حسن الصفار (ت ٢٩٠ هـ)، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ .

٨. الترتّب عند الأصوليّين، ابحاث سماحة الشيخ فاضل الصفار، تقرير ظافر الحسيني الفياض، مكتبة العلامة ابن فهد الحلي، ط١، كربلاء، ١٤٣٧هـ.

٩. الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت٥٧٣هـ)، مؤسسة الامام المهدي عجل الله فرجه، ط١، قم، ١٤٠٩هـ.

١٠. الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة، محمد بن جمال الدين مكي العاملي (ت٧٨٦هـ) ، انتشارات زائر، ط١،د.م، ١٣٧٩هـ.ش.

١١. عيون اخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق محمد بن علي ابن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، منشورات دار جيهان ، طهران ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ .

١٢. الفاطميات مشاعر الولاء في قصائد الزهراء، علي حيدر المؤيد، دارالعلوم للتحقيق و الطباعة و النشر و التوزيع، ط١، بيروت، ١٤٢٦هـ .

١٣. فقه الحديث قواعده ومناهجه، الشيخ فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء، ط١، بيروت، ١٤٣٨هـ.

١٤. قواعد فهم القرآن وتفسيره وتأويله، الشيخ فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء، ط١، لبنان-بيروت، ١٤٤٣هـ.

١٥. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبي طالب المكي (ت٣٨٦هـ) تحقيق: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، لبنان- بيروت، ١٤١٧هـ.

١٦. الكافي، محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني (ت ٣٢٩ هـ)، دار الكتب الاسلامية، طهران ، ط٤ ، ١٤٠٧ هـ .

١٧. ما يقوله القرآن في سورة يس من مفردات ولطائف وتعاليم، فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء، ط١، بيروت، ١٤٤٣هـ .

١٨. مناقب الإمام أحمد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الله التركي، دار الهجرة، ط٢، قم، ١٤٠٩هـ.

١٩. المناقب، أبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني (ت٥٨٨هـ)، مؤسسة نشر علامه، المطبعة العلمية، ط١، قم، ١٣٧٩ هـ.ش.

٢٠. نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، الحلواني، الشيخ الجليل الحسين بن محمد بن الحسن بن الحلواني(ق٥)، مدرسة الامام المهدي عجل الله فرجه، ط١، قم المقدسة، ١٤٠٨هـ.

٢١. نهج الإيمان، زين الدين علي بن يوسف بن جبر (ق٧)، تحقيق: أحمد الحسيني، مجمع الامام الهادي عليه السلام، ط١، مشهد، ١٤١٨هـ.